

ملخص

تسعى هذه الدراسة للبحث عن صورة فلسطين كما تعبر عنها روايات مجموعة من اللاجئين من أجيال مختلفة في كل من مخيمي اليرموك وقلنديا سنة 2008. والهدف الأساسي هنا هو الاقتراب من المضامين التي يضيفها الرواة على فهمهم للتاريخ كما تنعكس في رواياتهم، ومحاولة فهم آليات تشكل هذه الروايات، من خلال التحليل المقارن لمضامينها وأشكالها باستخدام عدد من المداخل النظرية والمفاهيمية حول تشكل السرديات الوطنية وآليات بناء الذاكرة الجماعية والمخيال الاجتماعي، وتحول الهويات في شرط استعماري، وديناميات السيطرة ومقاومة الأيديولوجيا المهيمنة، ومفهوم الاغتراب حسب عدد من المنظرين. وذلك من منظور ورؤية 82 رجلاً وامرأة يتشاركون في صفة اللجوء ويختلفون في شروط حيواتهم باختلاف أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وكذلك بتنوع المسافة التي تفصل بداية حياتهم عن العام 1948 حين تم اقتلاعهم من جذورهم وانتهى بهم المطاف في المخيمين.

أسفرت القراءة التحليلية للمقابلات إلى التوصل إلى ثنائية أنماط من الروايات الفلسطينية تنوزع مضامينها لترسم صورتين لفلسطين: صورة الواقع وصورة الأحلام. ويلاحظ في الفصلين الثالث والرابع، بأنه لا توجد علاقة مباشرة للاختلافات في السرديات بمكان اللجوء بما أن المخيمين _ اليرموك وقلنديا _ يسهمان برسم الصورتين، وإن اختلفت نسبة إسهام كل مخيم في رسم صورة الأحلام بالذات حيث يرتفع عدد الحالمين في مخيم اليرموك عنه في قلنديا.

تقترب صورة فلسطين الواقع من الصورة الممكنة والمسموح بوجودها بواقع 47 رواية من المخيمين تميل إلى اختزال فلسطين إلى بعد واحد هو الممكن المكاني أي البعد الجغرافي، وتركز الروايات هنا على **اليومي والحاضر والممكن والسياسي أكثر من تركيزها على الماضي والتاريخي والمأمول في المستقبل** لتثير ردود فعل تزرع في النفس الإحباط، أو الرغبة في الهروب من آثار الاقتلاع المستمرة بتقبل الفاعل الاجتماعي (الرواة هنا) لمبررات حزبية أو فكرية مؤطرة بالواقعية السياسية، أو الانسحاب من التاريخي للانغماس في صراع البقاء اليومي. وعلى هامش صورة الواقع المسيطرة على المشهد يقف بعض الرواة _ وعددهم 35 راوياً _ ورواية من المخيمين _ الذين يحاولون استقراء صورة مختلفة عن الصورة الواقعية التي فرضها الشرط الاستعماري الخارجي تساعدهم عدة عوامل منها اهتمامهم بالقضية الجمعية لتنعكس في مشاريعهم الشخصية فتثير لدى الفاعل الاجتماعي هنا مواقف مختلفة منها الرغبة باستعادة ماضي البلاد الجميل أو الغضب ورفض التخلي عن الحلم والابتعاد عن الوسائل التي تؤجل تحويل الحلم إلى واقع، أو الرغبة التي يرافقها العمل و/ أو الإرادة من أجل خلق إمكانيات وجود فلسطيني جديد. ولا تقتصر هذه الروايات على البعد المكاني فقط وإنما يتداخل فيها بعدي الجغرافيا والتاريخ، حيث يقرأ الرواة أحداث الماضي والحاضر قراءة نقدية ومقارنة مستندين على مخزون من الذاكرة المتقاطعة مع الوعي الفكري والتنظيمي أو الحزبي.

يشير تنوع الروايات إلى تداخل تأثيرات عدة عوامل في حياة الرواة منها مكان اللجوء والجيل، إضافة إلى تجارب الراوي الحياتية وتأثير الأحداث التي يعيشها المجتمع الفلسطيني: السيطرة الاستعمارية-الاستيطانية

المباشرة؛ والهيمنة التي يفرضها عدة أطراف: السلطة الحاكمة، والأحزاب السياسية، أو المؤسسات الأخرى: العائلة، الجهة المشغلة أو المانحة للفلسطيني؛ والتحول في الخطاب الرسمي الفلسطيني بعد أوسلو، إضافة إلى ظروف اللجوء المادية والنفسية؛ والمؤثرات الإعلامية والفكرية والسياسية التي تتعدد منابعها في زمن العولمة. ويظهر تأثير جميع هذه العوامل بدرجات متفاوتة في الروايات، لذا تنتج الرواية عن حصيلة تنازع هذه العوامل المختلفة في ذهن اللاجئ.

تظل النكبة المكان المشترك للذاكرة في أذهان اللاجئين الذين قابلتهم. فقد ظهرت في معظم الروايات كلحظة الاقتلاع العنيف من المكان-الوطن، بينما تحولت في بعض الروايات إلى "مكان للذاكرة"، لتتخذ صيغة شعار ومناسبة يتم إحيائها، من خلال عمل مُأسس. ويطل حدث آخر هو اتفاقيات أوسلو التي يمكن أن توصف كلحظة توتر في الروايات على اعتبار أن أوسلو، شكل لحظة التجسيد المادي للشرح في صورة فلسطين -بين الواقع والأحلام- كما تتجلى على أرض الواقع وفي الخطاب الفلسطيني الرسمي متمثلاً بانتقال مركز ثقل المنظمة من الخارج إلى الداخل والتغير الذي تطلبه هذا الانتقال في المشروع الفلسطيني من مشروع تحرير الأرض إلى مشروع بناء دولة على أجزاء متناثرة من الأرض. ويبدو واضحاً أن الرفض والغضب سمتان تصبغان معظم الروايات وإن اختلفت شدة الرفض وحدة الغضب بين الأنماط المختلفة. فالصورة التي يقدمها اللاجئين اليوم لفلسطين بجانبها النقدي قد لا تبدو تاريخاً بالمنظور الرسمي النخبوي للتاريخ لكنها تعبر عن الضمير التاريخي للشعب الذي عايش اللحظات التاريخية وما زال يعيش نتائجها.